الحقائق الألغاز

بقلم : محمد رجاء الدريني

قال « لن تصدق ما ارويه لك »

وتطلع الى يحاول ان يستمد من ملامحي ما يشجعه على الثقة بنفسه . لم يبد لي قط من قبل هكذا .. كان دائما واثقا من نفسه ، وبحق .. وأنا شخصيا لم اعهد فيه غير الاتزان والسلوك المعقول والصدق والشجاعة . لم يحاول أبدا أن يستجدى ثقة الآخرين . كانت هذه تأتي عفويا وكأنها ظل لثقته بنفسه . لم أره من قبل يحاول أن يشترى «بوليصة» تأمين من سامعيه على أنهم سيصدقون حديثه قبل أن يبدأ به . كانت عادته أن يقبل عليك ، وبدون مقدمات يقص عليك ما عنده من أنباء أو روايات عن نفسه أو عن الآخرين . وكثيرا ما كانت أخباره تبدو غريبة ولكن البرهان الملموس كان دائما يؤكدها . فمثلا كنا ذات يوم ذاهبين لاستقبال صديق له في المطار . استلم برقية من ذلك الصديق في الليلة السابقة يقول فيها:

« انتظرني غدا الاربعاء .. مطار القاهرة الواحدة ظهرا . »

وقبل الموعد المحدد بساعة كنا في سيارة أجرة في طريقنا الى المطار .. ولاحظت أنه ساهم شارد الذهن وأنه على الاكثر لا يدرك أنه في سيارة أو اننى بجانبه . كما بدا لي من ملامح وجهه وعينيه الساهمتين أنه يعاني ألما ما .. فلكزته بكوعي وهمست له مداعبا :

ـ نحن هنا .. أين أنت ؟

وكاد يقفز عن المقعد من مفاجأة اللكزة . ولكنه سرعان ما اناب الى رشده وقال في حزن مبهم :

ـ لن نرى (يوسف) اليوم .

ـ ماذا تخرف ؟ والبرقية ؟

ـ لن يأتي

ـ أتتنبأ كعادتك ؟

ـ لست أتنبأ . ولكن يسيطر على احساس غامض قوى أنه لن يحضر اليوم .. الله يستر .

ثم هتف بسائق التاكسى .. عد بنا الى البلد ..

ولكنى لم أثق بقوله واصررت ان نصل المطار وننتظر صديقه وتم لي ما أردت . وصلنا المطار في الواحدة

الا ربعا وجلسنا فى صالة الانتظار ·
كانت ملامح (خالد) هادئة ولكنه هدوء مغلف بالحزن · وقد حاولت أن أجره الى حديث ما · أى حديث · ولم أفلح · ظل يفلت منى كالزئبق ودقت الساعة الواحدة ثم الواحدة والربع والنصف ولم تصل طائرة صديقه · وذهبنا الى مكتب الاستعلامات فقالوا انهم لايعرفون سببا لتأخر الطائرة · وانهم لا يعلمون ان كانت ستصل أم لا · ولم يحضر (يوسف) بالفعل فى ذلك اليوم · بل وصل فى اليوم التالى · وتبين ان الطائرة التى كانت تنقله من لندن قد هبطت فى روما · ثم بعد أن أقلعت من روما بخمس دقائق عادت وهبطت من جديد · تبين أن بها خللا يحتاج الى اصلاح يستغرق يوما ·

يومها لم يبدأ (خالد) الحديث عن مشاعره الخاصة الغريبة باستجداء التصديق وانما ألقاه فى مسامعى دون مقدمات ودون أن يتوقع منى الا أصدقه ·

***

وحدث مثل هذا مرة أخرى · كنت أسهر فى ساعة متأخرة من الليل استعد لامتحان فى الحقوق الرومانية · كانت الساعة تقارب الواحدة والنصف صباحا حين دق الجرس · وحين فتحت الباب وجدت (خالدا) أمامى ، شاحب الوجه دامع العينين وقال بصوت تخنقه العبرات :

احتاج الآن عشرة جنيهات ·· لا بد أن أسافر الى بورسعيد الليلة · أمى تحتضر ·

كانت هيئة محزنة حقا · منجعه حقا · بدا وكأنه شبح يتكلم من هاوية سحيقة أو يسوم ينعق فى الظلام · وظننت أنه مخمور · انه أحيانا يشرب حتى يثمل وحينذاك تسيطر عليه سوداوية عميقة الحزن · وتستبد به المخاوف المأساوية · قلت :

ـ انك تبدو متعبا · ادخل واسترح قليلا ·· سأعد لك قهوة ·

ومددت يدى الى ذراعه أحاول أن أجره الى الداخل · ولكنه سحب ذراعه منى فى غضب وظل متسمرا فى مكانه ولمع فى عينيه بريق غريب وقال يعنفنى:

ـ مصطفى ·· ألا تفهم · أقول لك أمى تحتضر ·· وأنا أريد عشرة جنيهات لكى اذهب اليها · الآن ·

ـ من أين عرفت ؟ أجاءتك رسالة او برقية أو تليفون ·· أم وحى ؟

ـ لا شىء من هذا · لا أعرف كيف عرفت · ولكنى واثق مما أقول · مصطفى ارجوك ·· هل معك المبلغ الذى أريده · ؟

ـ معى كل ماتريد ، لحظة ·· سألبس وأذهب معك ··

وارتسم فى وجهه ألم كبير وهو يقول :

ـ أنت لا تصدقنى ؟ ··

ـ بل صدقتك ولكنى لن أتركك تذهب وحدك بهذه الحال · سأذهب معك كما تشاء ·· لكن أسرع ··

وفى دقائق كنا فى تاكسى متوجهين الى بورسعيد • وحين وصلنا كانت أمه فعـــلا تحتضر • وفى الصباح فاضت روحها • ولكنها قبل أن تموت أحست بوجود (خالد) وبدموعه وبذراعه تسند رأسهـــا ربيده تبلل شفتيها الجافتين فاشرقت فى وجهها بارقة رضاء وسعادة ظلت تغمره حتى بعد وفاتها •

***

ومرت على ذلك سبع سنوات • بعد وفاة أمه بسنة تقريبا تخرج (خالد) من كلية العلوم بامتياز ثم أرسل فى بعثة دراسية الى أمريكا• واستقر هناك أربع سنوات•عاد فى نهايتها بشهادة الدكتوراه وبقصة حب غريبـــة لم يروها لاحد • كان يقول انه لم يحب وهو فى أمريكا أية فتـــاة • لأنه ـ كمـــا قال ـ كان منصرفا بكل طاقاته ووقته الى الدراسة والى تحقيـــق واجباته ومسئولياته نحو بلده وأمته • ولم استغرب قوله هذا فقد كانت فكرة الواجب هـــذه تسيطر عليه لدرجة لم أعهدها فى أحد آخر • وربما كان لنشأته فى بورسعيد ولحياته فى أحداثها العظيمة عام ١٩٥٦ أثر كبير فى تجذير فكرة الواجب والمسئولية فى كيانه كله •

سألته ذات يوم :

ـ كيف كنت تروح عن نفسك اذن؟

ـ ربما تضطرب يامصطفى ماأقول • لو شـــعرت بوما أن وجودك كله وان معنى حياتك مرتبطان كليا بمشروع ما أو بهدف ما لماشعرت بالتعب ولواصلت العمل من أجمه أربعا وعشرين ساعة فى كل يوم من حياتك •• النفس فى هذه الحالة لا تحتـــاج الى راحة أو ترويح • لأن راحتهـــا لا توجد الا فى العمل • ولكن أنت وكل الناس تتـــحدثون عن ترويح الناس بأسلوب يفصل بين راحه النفس وأداء الواجب • ولهذا يقـــومون بواجبـــاتهم من غير نفس ، ولا ترتاح نفوسهم الا خارج أداء الواجب ، بأعمال هى فى الغـــالب خرق لواجب الانسان نحو نفسه كانســـان • لكنى كنت ـ بعـــكس ذلك ـ أجـــد كل اللذة فى الدراسة والعمل والتجريب والمخابرة• وحين كنت لا أعمل فى واحدة من هؤلاء كنت أحلم بمشاريع كثيرة وأعيش فى أحلامى • وحين لم أكن أعمل أو أحلم كنت أحس بفراغ واتعدام لطعم ومعنى الوجود • وكنت لا أنجو من هـــذه الاحاسيس المروعة الا بالعودة الى العمل أو الى رسم المشاريع •

ـ وغريزة الجنس فيك ؟ انت انسان كما أعلم • وفيك غريزة لا بد أن تشبع بأسلوب ما •

ـ غريزة الجنس ؟ نعم • نعم • هذه كانت تشبع كما تقول ••

لا • لاتظن اننى كنت قديسا • لكن اشباع غريزة الجنس هنـــاك هو فى الغالب عملية عضوية بحتة غير مرتبطة بعواطف عميقة ودائمة • الانسان هناك ممسوخ • مجرد آلة • كثيرا ما تجـــد هناك اثنين يتعـــاشران يوميا دون أن تربط بينهما أى عاطفة عميقة دائمة • وقد تجد هناك عاطفة قوية دائمة بدون معاشرة دائمة •

ـ وهذا الذى تسميه « عاطفة عميقة دائمة » هل خلت حياتك هناك منه ؟

ـ نعم ولا ·· انت تقصد الحب المرتبط بالجنس ·· وقد خلت حياتى هناك منه ·· لكن كان فى قلبى حب كبير عميق دائم لشىء اسمه العرب وبلاد العرب · ولهذا كنت أعتبر اقامتى هناك فترة استعداد وتحفز للعودة اليها وللمساهمة فى النهوض بها · ولو سمحت للحب الذى تعنيه أنت أن يتملكنى لألهانى عن الحب الذى أعنيه ·

***

لو رأيت خالدا كما رأيته وهو يتحدث هذا الحديث لصدقته كما صدقته · لم أستطع أن أشك فى صدقه ·· وكل ما أعرفه عنه وما أعرفه عنه كثير ، كان يشجب كل امكانيات الشك فى صدق واخلاص ما قال ·· ربما كان يبالغ ·· ربما · ولكنى شخصيا لا أجد مجالا لـ « ربما » هذه ·

رغم ثقتى الشديدة به ، وهو يعرف كل المعرفة أن ثقتى به شديدة ، بدأ (خالد) حديثه معى اليوم بقوله :

ـ لن تصدق ما أرويه لك ·· ثم تطلع الى وجهى محاولا أن يستمد من تعبيراته ما يشجعه على أن يثق بنفسه وان يستمر فى حديثه ·

ـ بل سأصدق ·· ما تعودت منك غير الصدق ··

ـ ولكن قصتى هذه المرة أغرب من كل ما تتوقع ·

ـ ليست هذه أول مرة ·

وابتسم ابتسامة حزينة وقال :

ـ الغرابة هذه المرة من نوع قد لا تفهمه أبدا · أنا نفسى لا أفهمه ··

ـ ما أكثر ما عجزت عن فهمك · ولكن هذا لم يمنعنى عن تصديق كل ما رويته لى ·

ـ أتعلم ؟ لقد نصحت ألا أروى هذه القصة لأحد · ولكن فرغ صبرى يا مصطفى · لم أعد أحتمل الانغلاق والكتمان · لا بد أن أشرك واحدا فى قصتى ولم أجد خيرا منك ··

ـ شكرا ·· ولكن من الذى نصحك ·· يبدو أن هناك شخصا آخر غيرى ·

ـ نعم ·· هناك شخص آخر · انه فتاة ·

قلت فى انتصار :

ـ هاها ·· انت واحاديثك عن حب الوطن والعرب و ·· انزل الى مستوى البشر يا أخى ·· انزل ··

فضحك زهو يقول :

ـ لاتسبق الاحداث بعد · اسمعنى حتى النهاية ··

ـ كلى آذان ··

ـ انت تعرف اننى عدت من أمريكا على ظهر باخرة ، من تلك البواخر التى يسمونها « عابرات المحيط » · والفتاة التى أحدثك عنها عرفتها على الباخرة · كان ذلك فى آخر ليلة لنا فى الاطلنطى · البواخر عادة تقيم حفلة بمناسبة اجتياز المحيط · انهم يسمونها حفلة الوصول بالسلامة · وقد أقامت باخرتنا هذه الحفلة التى امتدت حتى الواحدة · فى الواحدة والنصف كان معظم المسافرين قد أووا الى فراشهم كى يستيقظوا باكرا وينزلوا

الى لشبونة · كنا سنصل لشبونة فى حوالى السابعة صباحا ··

أما أنا فلم أنم ·· لم احس برغبة فى النوم · ولهذا احضرت معطفا من « البابين » وصعدت الى سطح مقدمه السفينه حيث كانت هناك مساحة سماوية فيها بعض المقاعد الخشبية كالتى نراها فى حدائقنا العامة · جلست على أحد تلك المقاعد ادخن سيجارة خلف سيجارة وأتأمل النجوم والسماء والبحر ونسمات الليل الباردة المنعشة وخرير الامواج · ثم سرحت · لا أدرى كيف ·· توقف ذهنى عن التفكير وشعرت بوحدة عفوية عضوية مع الكون كله ·· أحسست اننى والسماء والنجوم والبحر والسفينة والامواج والرياح شىء واحد ، روح واحد · أحسست بروحى تعانق كل هذه الاشياء وتحتضنها بذراعين ضخمين حتى لكأن أحدهما جبال روكى والآخر هماليا · وأحسست اننى كبير جدا ، وان جسدى ليس الا ثوبا ضيقا خانقا · وشعرت باختناق فعلى وبدمعة تسيل على خدى ، وبعد الدمعة غمرتنى راحة وشملنى سلام · وفجأة سمعت صوتا غريبا يهتف بى · صوتا هامسا غريبا وكأنه آت من عالم آخر :

« لست وحدك تملك الدنيا وتتحد مع الكون ياخالد · بل أنا أيضا اشاركك ·· خالد و (جريس) والكون كلنا روح واحد · »

وامتدت يد ناعمة كالحرير ، دافئة كالفرو ، تمسح على خدى ووجهى كله فى حنان رقيق · ثم أحس حفيف ثوب وحركة قدمين ثم ألمح جسما يقف أمامى فى الظلام · انه قوام فتاة ·· وألمح من وراء غلالات الظلام الخفيف ابتسامة عذبة تبرق فى عينيها وتنير لى وجهها لحظة · ثم جلست الفتاة بجانبى ووضعت راحتى بين راحتيها ·

حدث هذا كله وأنا مذهول مسحور · وحين أفقت من ذهولى لملمت شتات ادراكى لم أصدق نفسى وحواسى · لم أعرف فى حياتى فتاة اسمها «جريس» ·

فهمست لى فى تأنيب ودود :

— بل تعرفنى وأعرفك منذ أمد طويل ·· طويل ··

— وذهلت · هل تقرأ أفكارى ؟ وحاولت أن أشغل عود كبريت لأراها على ضوئه · وبما تعرفت عليها · ولكنها خطفت الكبريت من يدى وهى تقول :

— ارجوك ياعزيزى · لاتفسد جمال الطبيعة بصناعة الانسان · النور كاف لمثل هذه اللحظة من النهار · وليس أجمل من نور النجوم فى الغسق ·· ينساب على موسيقى الامواج ونسمات الفجر ورعشات الندى ·· آه ·· اننى مبتردة قليلا · ضمنى اليك ·· ضمنى وأفرد على جناحك ·· آه ·· هكذا هذا جميل منك · ·دعنا جالسين هكذا · عما قليل تظهر انوار لشبونة · وبعد ساعة أو اثنين تبزغ الشمس ·· وستراني كما تشاء فى ضوء النار · لا ··· لن تأسف الا على شىء واحد ، هو أنك لم تجدنى من قبل مع أننى كنت دائماحولك — لا تفكر كثيرا يا عزيزى ·· أنا أيضا مسافرة الى الاسكندرية · بعد ذلك ·· من يدرى ؟

وتذكرت الحكايات التى كنا نسمعها عن الجنيات ·· أأكون مع جنية ··

وضحكت عاليا هذه المرة . كان ضحكاتها كانت أنغام وتر ..

ـ ما اسخفك ياعزيزى .. لا .. لست جنية . أنا انسانة مثلك .. أتريد أن ترى جواز سفرى ؟ ..

وفتحت فمى أريد أن أسألها كيف تعرف كل هذا عنى .. اسمى ونهاية رحلتى و .. أفكارى كلها .. ولم أكد أنطق حرفا واحدا حتى كانت راحتها تغلق فمى .. وهمست :

ـ اش . اش . لاتفسد جمال لقائنا بالتفكير والتساؤلات . ستعرف كل شيء في حينه . ويمكنك أن تحدثنى كما تشاء فى لشبونة . سنزورها معا . أليس كذلك ؟

ـ لا ادرى . الامر يعتمد على .. وقاطعتنى :

ـ انك تتدلل بغباء .. كمعظم الفتيات فى بلادكم . انك ترغب جدا فى أن تكون معى ومن جهتى فليس أعز على من ذلك . اتفقنا اذن . والآن ضمنى اليك . لاتقل شيئا . عد الى وحدتك مع الكون . انا وأنت والبر والبحر والجو كلنا روح واحد عظيم يلبس أثوابا مختلفة .

لاأدرى كيف حدث ذلك . فقد استجبت لها بدون أدنى مقاومة أو تفكير .. وفعلا ذبت فى وجد صوفى غريب . نسيت نفسى ونسيتها ونسيت كل شيء تحتى وفوقى وحولى . الاحساس الوحيد الذى غمرنى هو أننا جميعا : أنا وهى والكون روح واحد كبير .. كبير مسجون فى أجساد صغيرة .. ثم فى هذه اللحظة تحطمت جدران السجون وعاد الكون كله ـ بما فيه نحن ـ الى وحدته .

ولا أدرى كم بقينا على هذه الحال . فالزمن ايضا فقد هويته الخاصة . لكن فجأة قفزت « جريس » من بين ذراعى وصاحت فى فرحة جذلى :

ـ لشبونة .. أضواء لشبونة .. انظر .. انها هناك .. هناك .

ونظرت فى غبشة الفجر ورأيت ثلاثة أنوار تتأرجح فى الافق البعيد . وشعرت أنا الاخر بفرحة . وركضت « جريس » الى أعمدة الحديد الأفقية التى تسنور سطح السفينة واتكأت عليها . ولحقت بها واحتضنتها فاستسلمت فى وداعة رقيقة ورحنا نتطلع معا الى لشبونة .

كان ضوء الفجر قد بدأ يزداد وضوحا فى كل دقيقة حتى أصبح كل شيء حولى واضحا . وتأملت هذه التى تضمها ذراعاى فوجدتها أجمل من وقعت عليها عيناى . ولاحظت وأنا أسترق النظر الى مفاتنها أنها بدأت تبتسم . وفجأة استدارت نحوى وخيل الى لحظة أنها ملاك أكثر منها بشرا . لكن سرعان مازالت هذه الخاطرة من ذهنى حين قرصت وجنتى وهى تهمس لى :

ـ هل اطمأننت انك لم تكن لعبة بيد عجوز متصابية . لا .. لاتحتج . فأنا اعرف أن الفكرة خطرت لك . والان وقد رأيت اننى لاعيب فى أن أرجوك ألا تعيش معى بعقلك وتساؤلاتك وأفكارك . عش معى بوجودك كله بدون تساؤل ، بدون ضمير اجتماعى ، بدون تعقيد للأمور . فالعقل ملهاة .

وفى الحال ذابت كل تساؤلاتى وكل

افكارى • وعشت معها بكل وجودى فلم اشعر بجموع المسافرين الذين راحوا يتقاطرون الى الساحة ويتفرجون معنا على المدينة التى قفزت علينا من الافق •

والقت السفينة مراسيها فى ميناء لشبونة • وأعطى المسافرون مهلة عشر ساعات يقضونها على البر • ونزلنا أنا و (جريس) وقضينا هذه المدة نطوف شوارع المدينة ونزور اسواقها وآثارها ومشاهدها وقد جلسنا فترة فى مقهى ، وحينذاك قلت لها :

ـ والان يا (جريس) من أنت ؟

قالت :

ـ (جريس) ثم تهجت اسمها بالانجليزية ثم استأنفت : اسمى الكامل (جريس ماكنسكى) ولدت ونشأت فى ولاية (أوريغون) • والآن أنا مسافرة الى بيروت حيث ألتقى بأمى وساقضى معها أسبوعا فى بيروت ودمشق وعمان والقدس • ثم نطير الى الهند ثم الصين ثم اليابان ثم نعود الى أمريكا •• هل اشبع هذا فضولك ؟

ـ لست أعنى هذا • أعنى ما طبيعتك ؟ كيف عرفتنى ؟ كيف تقرئين افكارى حتى قبل أن أتمها فى نفسى ؟•

ـ هل هذا مهم ؟

ـ بالنسبة لى أنه مهم جدا ، فاننى أعيش مع لغز • ولست أصبر على الالغاز •

ـ ان حياتنا كلها الغاز • أتظن أننى اللغز الوحيد فى حياتك ؟

ـ لا •• ولكنك لغز غير مألوف •

ـ حاول أن تألفه • اننى لا أستطيع أن أفكه لك •• لا بد أن تفك رموزه بنفسك • ولكن فك الرموز والالغاز يأتى عفويا والهاما • ولهذا لا تفتعل الايضاح بعقلك المحدود •

ـ ربما لا أستطيع الصبر حتى يأتينى الالهام •

قالت : وكأنها تحدث نفسها « بمثل هذا الموقف من أسرار الحياة طرد آدم نفسه من الفردوس • ولكن هل مللتنى يا عزيزى ؟ تظل دائما تتلهى عنى بالأسئلة •• ان الجواب على اسئلتك أتفه بكثير من حقيقة أننا معا الآن فى هذه اللحظة • الماضى لا يهم • والمستقبل لا يهم • المهم هو الحاضر ـ فهو المستقبل وهو الماضى • دعنا نستمتع به• دعنا••

ـ كما تشائين ••

ونسيت الماضى والمستقبل • وعشت بوجودى كله فى الحاضر ـ معها وبها ولها• ورحنا كطفلين•• ذراعانا ملتحمان وجسدانا يسيران خطوات واحدة فى أنحاء المدينة • وفى المساء حين عدنا الى السفينة كنا من أسعد المخلوقات واستأنفنا ما كنا فيه من سعادة •

قالت وهى تتعلق بذراعى :

نحن الآن زوجان أبديان •• أنت آدم وأنا حواء وهذا العالم كله جنة عدن • فردوسنا • شجرة واحدة يمكن لثمرها أن يفسد زواجنا ـ العقل • لا تفكر يا حياتى• والا أصبحنا أبناء الاثم والندم والعذاب •

ولم أفكر • تحررت من كل القيود الاجتماعية التى تقفل كثيرا من الابواب أمام انسانية الانسان • وعشت مع معبودتى ورفيقتى وقرينتى (جريس) فى فردوس ستة أيام بلياليها • وفى

فجر اليوم السابع كنا نصل الى ميناء الاسكندرية :

قالت وهى تحتضننى على سطح مقدمة السفينة فى غبشة الفجر :

ـ يا آدمى العزيز ·· بعد اليوم ستضرب فى أرجاء الارض وحدك ·· ولكنك ستذكرنى دائما ··

قلت ودمعى ينهمر :

ـ دائما ··

قالت : وتخلص لى دائما ·· تظل دائما انسانا فيه براءة الفردوس ··

قلت : بكل قواى أعد ··

قالت : انك تجيب بمنطق العقل ومنذ ساعات والعقل يسيطر عليك ·· ولهذا تبكى·· اننا ما زلنا فى الفردوس يا حبيبى المسكين ولكنك أكلت من ثمر الشجرة المحرمة وبدأت تحس أنك قادم على ظلام وتكفير وعذاب··· آه ياعزيزى بودى لو انقذك وأظل معك ··

قلت وأنا أنهار أمام انتهاء فكرة الفردوس :

ـ وبودى ذلك أيضا · اسمعى · لم لا تنهين رحلتك هنا فى الاسكندرية ؟ ثم نتزوج ونعيش معا الى الابد· سنتزوج حالما تطأ أقدامنا البر · سنذهب الى شيخ أو قسيس اذا أردت ونطلب منه أن يعقد زواجنا ·

قالت وفى صوتها نواح :

ـ أوهام وأباطيل ـ زواج وحياة الى الابد ـ وشيوخ وقسس· نحن متزوجان يا عزيزى وزواجنا أبدى ومعقود فى صفحة القدر · ولكن ·· يا الهى ·· أنت لا تفهمنى · ومع ذلك أنت زوجى·

ـ زوجك ؟ كيف ـ من الذى زوجنا؟

ـ لا يستطيع أحد أن يزوجنا · نحن الذى تزوجنا ·· أتعرف من أنا ؟

ـ أنت (جريس) ·· أنت (جريس ماكنسكى) ·

ـ أنا (خالد) ·· وأنت (جريس) وكلانا (خالد وجريس) ·

ـ ألغاز لا أفهمها ·

ـ وحقائق لاتستطيع أن تهرب منها·

وراحت تحتضننى وتقبلنى وتتحسسنى فى حنان ورثاء واشفاق · وكانت تغمغم وهى تمسح وجهها بوجهى وبعنقى وبصدرى وكأنها تحاول أن تنفذ الى عقلى وقلبى وروحى · وحين عجزت انهمرت من عينيها الدموع التى بدا لى وهى تغمرنى بها أنها تحاول تذويب الحواجز الجسدية التى تمنع روحى من ملاقاة روحها والاتحاد معها ·

وقضيت تلك الليلة مع (جريس) مأخوذا مبهورا مسحورا · وحين طلع الصباح ورست السفينة فى الميناء كنت لا أكاد أقوى على الوقوف · ولكنها حين ودعتنى بثت فى القوة والشجاعة على المضى فى دروب الفناء الى نهاية نصيبى منها · وأوصتنى ألا أروى لأحد قصتنا · وأكدت لى أن أحدا لن يفهمنى ولن يصدقنى · ولهذا سيتهمنى الناس بالجنون · وربما يجنوننى بالفعل ·

بعد ذلك بسويعات كنت بين أهلى وأصدقائى فى بورسعيد استسلم لقبلاتهم وعناقهم وتهانيهم · وعدت الى دروب الحياة المألوفة الخالية من الالغاز الغريبة الحبيبة ·

***

وسكت (خالد) لحظة وكان فى عينيه المحمرتين الدامعتين شرود ··

وأخيرا استأنف حديثه :

ـ لقد اعطتنى عنوانها ووعدتها أن أكتب اليها كلما أحسست بحاجة نفسية ملحة اليها · قالت انها ستكتب الى كلما

أحست أننى بحاجة حقيقية اليها، وأننى سأجدها حولى بلحمها ودمها، كلما ذبت بوجودى فى الكون فى لحظات الوجد والصفاء العفوي غير المفتعل ·

وقد كتبت لها فى كل مكان استقرت فيه· كتبت لها فى الهند، وفى الفيليبين، وفى الصين وفى اليابان وفى أوريغون بأمريكا · وكانت رسائلها تصلنى بين الحين والآخر ، فى اللحظات التى أكون فيها على وشك أن أتخلى عن وعدى لها بأن أكون « انسانا دائما ، فيه براءة الفردوس » ·

« فمثلا ، شربت ذات ليلة مع شلة من الاصدقاء وزملاء العمل · وكنت يومها أشرب فى غير اعتدال · وفجأة ، قبل أن أسكر ، قال محمود ، وهو أحد زملائى كما تعلم : « خالد هذه رسالة وصلت اليوم· وقد نسيت أن أعطيها لك فى الدائرة · ولم أتذكرها الا الآن » · وأخذت الرسالة · وحين قرأتها عافت نفسى المشروب ورفاق الكأس · فغادرتهم وذهبت الى شقتى سيرا على الاقدام· كان البدر مكتملا فى تلك الليلة ، والطريق هادئا خاليا من الضجيج والزحام · ونسيت نفسى · وشعرت بوجود صوفى وبوحدة عضوية مع الكون كله · وظل جسدى يسير غريزيا الى شقته وحين فتح الباب ودخل كانت (جريس) خلف الباب بلحمها ودمها ، ذراعاها ممتدان لاستقبالى · واحتضنتنى وهى تهمس :

ـ يا حبيبى المسكين ·· لكم تعانى روحك الغربة والوحدة · ولكم أنت بحاجة الى ذراعى·· تعال ، واسترح فى حضنى يا زوجى الحبيب ·

وغفوت ليلتها فى حضنها حتى الصباح · وحين أفقت فى الصباح كان البيت مرتبا ونظيفا وجميلا ·· وكان الكون كله مشرقا بالجمال والدفء ·

وفى مرة أخرى كان أحد زملائى فى العمل ، ولا ضرورة لذكر اسمه ، قد استغل مركزه استغلالا يضر بالمصلحة العامة · كنت مسئولا عنه ، ولهذا اعتقدت أن من واجبى أن أوقفه عن الاستغلال ، وأن أعاقبه بحزم · وقد قمت بواجبى بشكل آلى · لم أسمح لعواطفى أن تؤثر على سلوكى تجاهه · ورغم أنه حاول أن يستثير كل مكامن الرحمة فى ·· سددت أذنى ضد كل ما قال ، وسددت عليه كل أبواب الرحمة · وبعد أن أخضعته للعقاب · دخل على المسكين منكسر النفس وهو يحمل لى رسالة منها · ناولنى الرسالة وخرج · وحين قرأت الرسالة حزنت حزنا شديدا ، وتمنيت لو كنت مجردا من سلطة العقاب والثواب · وقضيت المساء وحدى فى شقتى اجتر حزنى على ذلك الزميل المسكين حتى بكيت من أجله ·· وحينذاك أحسست بيدها تمتد من خلفى لتمسح دموعى وتسند رأسى الى صدرها الحنون ·· وهمست ·

ـ « عدالة الانسان يا عزيزى ليست نظريات لا قلب لها · انها يجب أن تقوم على الحب · والحب يتمثل فى الرحمة معا· » ثم ظلت تواسينى وتسلينى حتى غفوت فى حضنها حتى الصباح ·

ومرت سنة وبضعة شهور على هذه الحال · أحيانا كان يصلنى منها رسالتان فى الاسبوع ، وأحيانا تنقطع شهرين أو ثلاثة · لكن رسائلها كانت غريبة فى محتواها وفى تأثيرها على· لم تكن تعتذر عن عدم انتظامها · ولم تكن تشير الى

رسائلى . مرة واحدة علقت على رسائلى بأنها تعبيرات عن نزوات مؤقتة لا تصدق الا على اللحظات التى كنت أكتبها فيها. وأحيانا كان يخيل الى أن رسائلها ليست موجهة الى بالذات بقدر ما هى موجهة الى الانسان فى.. الانسان المطلق. وأحيانا كنت أشعر أن هذه الرسائل نفسها انما تخاطبنى وحدى من دون الناس وتحاسبنى على كل صغيرة وكبيرة فى حياتى محاسبة ودودة وحازمة معا .

***

وتوقف (خالد) عن الكلام للمرة الثانية . وتطلع الى من جديد فى محاولة لمعرفة أثر روايته على وموقفى منها . وأدركت حاجته الى تعليق منى. فى أعماقى كنت محتارا بين أن أصدقه وبين أن أشك فى صحة عقله . ولا أكتم أننى كنت راغبا فى المزيد من أحداث قصته.. ولو أدرك أننى أشك فى صدق ما يقول لأمته من جانب ، ولحرمت نفسى من سماع البقية . لهذا قلت :

ـ ان ما تروى غريب حقا .. انك تتحدث عن خوارق . ولكن ، اما زلتما على هذه الحال ، أعنى ، هل تراسلك وتظهر لك على النحو الذى ذكرت ؟

وتنهد (خالد) وأجاب :

ـ لم أرها ولم أستلم منها أية رسالة منذ خمسة أشهر .

فسألته :

ـ هل هناك سبب ؟

أجاب :

ـ لا أدرى . ولهذا تجدنى قلقا عليها محزونا لاختفائها من حياتى . بعثت لها أكثر من عشر رسائل، ولكن الرسائل لم تعد الى ، ولم يردنى أى جواب على أية رسالة . ومعنى هذا أنها استلمت رسائلى ولكنها لا تريد أن ترد عليها . لماذا ؟ لا أعرف . ليتنى أعرف .

ثم أخلد الى الصمت للمرة الثالثة . شرد ذهنه . خيل الى أنه يخفى عنى شيئا .. كان شروده مختلفا هذه المرة. لم يكن الشرود المتوشح بغلالة رقيقة من الحزن الهادىء بل كان شرود القلق والخوف شرود الرغبة فى الهرب من شىء ما . ملامح وجهه لم تعكس الاطمئنان أو البراءة . لقد حل فيها القلق محل الطمأنينة بل خيل لى لحظة أن ملامحه تنم عن صراع بين الشعور بالاثم وبين العناد والكبرياء الذى يرفض أن يعترف بالاثم . ولكنى طردت هذه الخاطرة من ذهنى . وقلت فى نفسى :

ـ لا . ليس هذا ممكنا . ان كانت عندى فراسة ، فان فراستى لا ترى فى خالد رجلا قادرا على الاثم أو على المكابرة.

ولكنه لا شك أن خالدا كان قلقا بالفعل . وربما كان خائفا. ولهذا قلت أنتشله من ذهوله :

ـ انك لا تبدو طبيعيا يا خالد . هل أنت قلق على شىء أو خائف من شىء ؟

وليتنى لم أساله هذا السؤال .. فقد ارتبك ارتباكا شديدا . كنا يومها جالسين حول طاولة فى أحد المقاهى ، وكانت يده تمسك كوبا من الماء. وحين سمع كلمتى «قلق» و «خائف» ارتجفت يده فدلقت ما فى الكوب على الطاولة ، فراح يمسح الماء المدلوق بعصبية فارتطمت يده بفنجان القهوة الذى وقع على الارض « طاق . طاق » ـ تحطم . واحمر وجه (خالد) ثم اصفر ، ثم احمر . وابتسم ابتسامة بلهاء مقهورة ، وحاول أن يتكلم فتلعثم وتكسرت الكلمات على لسانه وماتت على شفتيه .

وادركت أنه يعاني صراعا داخليا عاصفا لا أعرف عنه شيئا ولا يود هو ـ كما بدا لى ـ أن يفصح عنه · فتشاغلت عنه بترتيب ما أحدثه ارتباكه من فوضى ثم دفعت الحساب وثمن الفنجان المكسور ، وأخذته من ذراعه وخرجنا ·

ونسى أن يسألنى ان كنت صدقت روايته · نطق لسانه بكلمات اعتذار جوفاء ، وقال انه مرهق يحتاج أجازة وأنه سيأخذ هذه الاجازة فى خلال أسبوع · وتركنى دون أن يشير بكلمة الى قصته مع جريس ·

بعد أسبوع زارنى خالد فى بيتى · كان يبدو متعبا جدا · قال انه أخذ اجازة شهر وسيقضيها كلها فى الاسكندرية · ووعدت أن أزوره هناك بعد أسبوع · ثم ودعنى وخرج ·

وفى يوم الاربعاء ، أى بعد خمسة أيام ، كنت ساهرا فى بيتى بعد أن عدنا ـ أنا وزوجتى ـ من مشاهدة أحد الافلام · كنا قد انتهينا من تناول وجبة خفيفة ، وبدأت زوجتى تستعد للنوم ، ورحت أنا أطالع رواية · كانت الساعة تقارب الواحدة صباحا · وفجأة دق جرس الباب · وتطلعت زوجتى مستنكرة هذا التطفل فى هذه الساعة من الليل ، وقالت :

ـ لابد أنه أحد أصدقائك «السائعين»

وذهبت نحو الباب وأنا متضايق من تعليقها ومن الذى دق الجرس · وحين فتحت الباب رأيت رجل بوليس ضخما يقف كالتمثال · وتطلعت اليه فى حنق وذهول · ولكنه لم يأبه لى ، وبادر يسألنى وكأنه جهاز تسجيل :

ـ حضرتك مصطفى خلف الله ؟

قلت :

ـ نعم ·· لماذا ··

قال :

ـ تسمح تلبس وتتفضل معى الى القسم ·

قلت : القسم ؟ لماذا ؟

قال :

ـ هناك شخص يدعى أنه الدكتور خالد عبد الله · سلم نفسه للبوليس قبل قليل · طلب أن نقبض عليه ·· نحن نظنه مخمورا أو مجنونا · وليس معه أوراق تثبت شخصيته · ولكنه قال أنه يعرفك وأن منزلك قريب جدا ·

قلت وأنا لا أدرى كيف أهضم ما يقول :

ـ الدكتور خالد ؟ أنت متأكد ؟ حاضر سألبس حالا ·· حالا ··

وتركته واقفا بالباب ودخلت الى المنزل لألبس ملابسى ··

كانت زوجتى قد سمعت كل شىء ولكنها لم تصدق وقالت :

ـ الدكتور خالد ؟ هذا غير معقول · انه فى اسكندرية ، أليس كذلك ؟

قلت وأنا أرمى بيجامتى واحشر نفسى فى «بنطلون» :

ـ هذا ما أعلمه · لكن ·· على كل حال سأتأكد فى لحظات · نامى أنت ·

وتركتها مذهولة ، ورافقت العسكرى ، الى مركز البوليس ··

وبالفعل وجدت (خالدا) هناك ، يجلس على كرسى أمام مكتب الضابط ، رأسه منحن الى الامام ووجهه مغطى براحتيه · وحين أحس بى هب واقفا · كانت ملامحه هادئة هدوءا غريبا ، تعلن فى بلاغة عن مأساة ويأس واستسلام ·

قلت وانا احتضـــنه بين ذراعى فى تأثر بالغ :

ـ «دكتور خالد : مالك ياعزيزى ؟ انك تبدو وكأن القيامة قامت ..

قال :

ـ لقد قامت قيامتى بالفعل ..

قلت :

ـ لا أفهم . ماذا تعنى ؟

واستأذن خالد الضابط فى أن ينفرد بى بعض الوقت ، فاذن لنـا بالانفراد بعد أن اطلـع على هـويتى وأخذ بعض المعلومات بشـأن عملى وعنوانى و .. الخ . ادخلنا حجرة صغيرة بجوار مكتب الضابط فيهـا بضعة كراسى . وحين جلسنا تطلع الى خالد بوجه هادىء خال من الانفعال وقال :

« لولم اسلم نفسى لقبضوا على عاجلا أو آجـلا .. فقـد تورطت فى عملية اختلاس لا ، لاتستغرب . حتى الملائكة خانوا طبيعتهم وأصبحوا شياطين . المهم يا صـديقى اننى أخطـأت كنت أوهم « نفسى أول الامـر أن ما أفعـله ليس اختلاسا ، بل تفسيرا خاصا للقـانون لا يؤدى الى خرق القانون . صحيح أن ضميرى لم يكن مرتاحا لهـذا المنطق . لكنى استطعت بمعـاونة شركائى أن أحتال على ارضـاء ضـميرى بالتفلسف حول معنى القانون وغايته وطبيعة عمل المحامين وغير ذلك .

لكنى بعد مدة قصـيرة اكتشفت أن عملنـا لم يكن تحـايلا مشروعا على القانون ، ليس تفسـيرا خاصا منطقيا له . بل كان اعتداء صارخا على القانون. لـكنى اكتشـفت أيضـا أنه ليس من السهل أن أنسحب . خفت . والخوف جعلنى أتردد فى الانسـحاب . كذلك أوهمت نفسى أنه يمكن أن نعطى الأمر قبل أن ينفضح ، وحينذاك أنسحب . ومضـت الأيام وأنا أزداد غوصـا فى الوحل رغما عنى ، وشـبكة المجرمين تزداد نفوذا على ـ تارة يهددوننى وتارة يهـونون الامر على وتارة يمنوننى أن الاختلاس سـيتوقف فى وقت قصـير ويسوى بحيث لا يظهر له أثر وحينذاك أستأنف الاستقامة .

وأصبحت فريسـة لموجات متتابعة مستمرة من الخوف والقلق والأمل حتى لم أعد أدرى ما أفعل . ولهذا قررت أن آخذ أجازة وأن أبتعد عن جو الجريمة لأريح أعصابى وأفكر فى هدوء .

وفى الاسـكندرية استأجرت شقة منعزلة نوعا ، وبدأت أدرس وضـعى وأقوم تصرفاتى بعيدا عن تأثير الشركاء وزحمة الأعمال. واكتشفت أننى تغيرت كانسـان وأن الغش والاثرة والجشـع والمادية أصبحت مسيطرة على سلوكى ، موجهة لتصرفاتى . اكتشفت أن الأمانة والايثار والقنـاعة والروحانية لم تعد صفات لى كما كانت من قبل . أصبحت (فاوست) آخر .

وقد آلمنى هذا الاكتشـاف . وآلمنى ما جرنى اليه هذا التغير من تورط فى جريمة الاختلاس . وقـررت أن أتوقف عن الاسـتمرار فى هذه الجريمة . وأن اكشفها . ولم يكن هـذا التراجع بدافع أخلاقى . الحقيقية أننى كنت خائفا من الاسـتمرار ، لم يكن بدافع التـوبة الصـادقة والندم بقـدر ما كان بدافع الخوف . ولو وجـدت منفذا أتخلص به من الجريمـة دون أن ينالنى العقـاب لسـلكته . احيـانا كنت أتوهم أننى سـأفعل ذلك بتـأثير الشـعور بالاثم

والنـدم · ولكن تصرفاتى العفوية التى كانت تنم عن خسة عميقة فى ·

مثـلا :

فى الليـلة الماضية سـهرت فى أحد النوادى الليلية ·· حـين دفعت رسـم الدخول للبنت جنيها · فأعطتنى تذكرة قيمتها خمسة وعشرون قرشا ثم قالت :

ـ حضرتك أعطيتنى خمسة جنيهات ؟

وأدركت أنهـا أخطأت ، ولكنى لم أصححها · قلت :

ـ نعم ··

فأعطتنى أربعة جنيهـات وخمسـة وسبعين قرشا · وبكل بسـاطة وبدون وخزة ضمير أخذت المبلغ الذى لا حق لى فيه ·

وقد شربت حتى ثملت وعربدت كما لم أعربد من قبل أبدا · وأنهيت الليلة بمرافقـة احدى الراقصات الى بيتى · وفى البيت أرهبت الفتاة حتى ظنت أننى سأغتالها · وعذبتهـا عذابا منكرا · لم أترك سترا من حيـاء الا ومزقته ، لم أترك عورة الا وفضحتهـا · لو رأيتنى لاعتقدت أننى شـيطان مريد ، مستر (جيكل) آخر ·

الأغرب من هذا أننى كنت أشعر بلذة شيطانية غريبـة · دست كل القيم فى احتقـار وتشف مجنـون · وفى نفس الوقت كان فى أعمـاقى صوت يضحك على ، يهزأ بى ، يسـخر منى ، يعيرنى أننى انما أحطم نفسى، أتبذل ، أندفع فى تسـارع غريب الى الهـاوية ، أحطم وأدوس كل المثـل النبيلة والمشروعات الانسانيه التى كنت قد كرست حياتى لهـا · وكل شيطنتى كانت تحديا لهذا الصوت ، ومحاولة للانتصار عليه ·

وقد اعتقدت الفتـاة اننى مجنون ، وأنهـا ان صـاحت أو هربت فالى سأقتلها كما توعدت أن أفعل · ولهـذا سـلكت معى سـبيل التوسـل والاسـتعطاف · والغـريب أننى كنت ازداد رغبة فى تعذيبها كلما توسلت · وحين تستسلم كنت أحس بأنها انتصرت على · وأخيرا حين استسلمت لكل ماقد أفعله بهـا حتى القتل ، شـعرت أنها سحقتنى وأننى فى آخـر المشـوار انهزمت · وعلا ضحك الصوت الساخر الهـازىء فى أعمـاقى · ويئست من الاستمرار فى مقاومته · وانهارت قواى واستسلمت للبـكاء كالأطفال · تحولت من عملاق الى قزم صغير ·

وحينذاك انسلت الراقصـة المسكينة من شقتى وهى لاتكاد تصدق أنها نجت · ظنت أننى لا أحس بهـا ولا أعرف أنها تهرب · ولكنى كنت مدركا لكل حركة تقوم بهـا ، ولم أشعر بأية رغبة فى منعها · كنت مدركا أنها قد تشى بى ، ولكنى لم أعد أبالى · وحتى الآن لم أعلم أنها فعلت شيئا من هذا القبيل ·

وأخـيرا جفت دمـوعى · وشـعرت باختناق فى البيت ، وبرغبة فى بعض الهواء الطلق · ولبست ملابسى وخرجت وزحت أتمشى على الكورنيش ·

كانت الساعة حوالى الرابعة والنصف صباحا والشـوارع شبه مقفرة والريح قوية وأحيـانا عنيفة والأمواج هادرة صـاخبة · كل شىء كان يبدو منسجما مع أعصـابى المتوترة ومريحا لها ، الا النـور · فقد تضـايقت من الأنوار الكهربية وتمنيت لو كانت كلهـا مطفأة والظلام سائد ·

وسرت مسافة طويلة بدون استهداف

واضح · وأخيرا انتهيت الى مكان مقفر تماما وشبه مظلم · نزلت درجا لف بى يمينا ثم شمالا ثم انتهى بى الى مساحة رملية لم تكن الأمواج قد امتطتها بعد · وجلست على الرمل الرطب · وتسربت برودته الى جسمى رأعصابى · وبدأت اهدأ · وأحسست بشىء من البلل على وجنتى وبرطوبة فى عينى · لا أعرف ان كان ذلك دمعا أو رذاذ بحر ·· ولكنى أحسست بالراحة تغمرنى وبالسلام يشملنى · وتوقفت عن التفكير وعن الاحساس الواعى الارادى وغاب عن وعيى الزمان والمكان وتلاشيت بدون قصد فى نوع من الوجد الصوفى والوحدة العضوية مع الكون بكل ابعاده الزمنية والمكانية ·

لا أدرى كم مضى من الوقت وأنا على هذه الحال · ولكنى فجأة سمعت تنفسا متحشرجا ثقيلا وأنينا عميقا · وتلفت حولى وياالهول ما رأيت ·· يا الهى يا الهى ·

واغرورقت عينا خالد بالدموع واختنق صوته · فهتفت به :

ـ (جريس) ؟ هل ألم بها مكروه ياخالد ؟

قال نائحا :

ـ كانت تموت · كانت تموت يامصطفى · أتصدق ؟ الانسانة الوحيدة التى أحبها وتحبنى · الاشراقة الوحيدة فى حياتى البائسة ·· الحقيقة الوحيدة التى ظلت فى حياتى خالية من الشك ومن الدنس · نعم يا مصطفى ، كانت (جريس) ممددة بجانبى محطمة العظام مهصورة الجسد والدم يتدفق من فمها وأنفها مع كل زفرة وكل كلمة ·

وقفزت نحوها ملتاعا · وانحنيت فوقها أسألها عن ما ألم بها ··

فابتسمت ابتسامة تفيض بالحزن والألم وتمتمت :

ـ يا حبيبى المسكين · لقد ظلمت نفسك كثيرا · والطريق أمامك شاق · شاق وطويل · ولن أكون بجانبك أواسيك · لن تضمنى اليك بعد اليوم· فقد انسدت بينى وبينك السبل · لكنى سأظل فى انتظارك يا زوجى لأستقبلك فى أحضانى حين تخلع عنك هذا الثوب (وأشارت الى جسدى) وهذه الحوذة (وأشارت الى رأسى) ·

ثم همست بصوت واهن :

ـ ألا تضمنى ضمة الوداع ؟ مازال بامكانك أن تفعل ذلك ·

وضممتها برفق ، وسندت رأسها بذراعى ، وأنا لا أملك دموعى من الانهمار · ولا أدرى كيف فاضت روحها · ورحت أناديها لعلها ترد على : جريس جريس ·· جريس ·

ولكنها كانت قد طرحت عنها «ثوبها» و « خوذتها » · وبينما كنت أناديها أغارت علينا موجة عاتية طرحتنى أرضا وأفقدتنى وعيى لحظات وحين أفقت لم أجد لجسدها أثرا · ورحت أطارد الموجة كالمجنون حتى وجدتنى محاطا بالأمواج كل منها تصفعنى فى عنف وتردنى فى غير رحمة ·

وأخيرا عدت أدراجى خائر القوى مبتل الملابس مبتردا حتى العظام ·· ووصلت البيت بمشقة شديدة ووقعت على الفراش فى اغفاءة طويلة عميقة وفى أعماقى صوت مجنون يردد فى نواح :

ـ البحر أعطى، والبحر أخذ · البحر أعطى والبحر أخذ ·

أول شيء فعلته حين أفقت هو أن خشوت ملابسي وحاجاتي في الحقيبة وجئت الى القاهرة · وضعت حقيبتي في شقتي وجئت هنا لأبدأ الطريق الشاق الطويل الذي ذكرته (جريس) في نزعها ·

ثم مد يده الى جيبه وأخرج منها مفتاح شقته · ثم أعطاه لي وهو يقول :

ـ لي عندك رجاء خاص · سأقول لهم انني كنت في الاسكندرية أزور صديقا وأنني تركت المفتاح قبل سفري معك·· خذ هذا المفتاح واذهب الى شقتي وخذ منه رسائل (جريس) احتفظ بها عندك حتى أخرج من السجن · أنت تعلم أنهم سيفتشون بيتي · ولا أريدهم أن يعثروا على هذه الرسائل ·

قلت :

ـ لم لا تذهب معي وغدا تسلم نفسك ·

قال :

ـ لا ·· لابد أن أواجه قدري منذ الآن · لقد هربت منه كثيرا ··

قلت :

ـ ليعنك الله ··

وتركته وذهبت الى شقته ··

***

في الحقيقة كنت محتارا في قصته مع (جريس) · وقد راودني الشك بأنها لم توجد الا في خياله وضميره · ولكني حين دخلت شقته وفتشت على رسائلها وجدت تلك الرسائل بالفعل· مكتوبة بخط (جريس ماكنسكي) التي تقيم في (أوريغون) بأمريكا · أكثر من هذا حين فتحت حقيبة ملابسه وجدت بدلته وقميصه وملابسه الداخلية مازالت مبتلة بماء البحر · بل وجدت على معطفه أثرا خفيفا للدم ·· وقد أخذت هذه الملابس الى بيتي حيث غسلتها زوجتي وأزالت منها أثر الدم والبحر ·

وبعد حوالي أسبوعين حمل البريد من (أوريغون) بأمريكا طردا بريديا فيه كل الرسائل التي كان (خالد) قد بعثها الى (جريس) وفيه أيضا رسالة قصيرة حزينة من والدتها تقول فيها ان ابنتها (جريس) توفيت قبل أسبوعين في مساء الثلاثاء ـ بعد الغروب ـ في حادث اصطدام بسيارتها ·وأنها تأسف أن تخبر (خالد) بذلك · كما أنها تعيد اليه رسائله لأنها تذكرها بابنتها وتسبب لها آلاما مبرحة ·

وازدادت حيرتي · هل كانت رواية خالد عن علاقته الغريبة بـ (جريس) صادقة كلها ؟ انها لغز لا أفهمه · ولكنها حقيقة تؤيدها البراهين الملموسة ·· يا الهي · كم في دنياك من الحقائق الالغاز ·